في التراث العربي

ثقافة التواصل مع ذوي الاحتياجات الخاصة

د. خالد فهمي

تمثل دراسة ثقافة التواصل مع ذوي الاحتياجات الخاصة نقطة ضوء تعكس الملمح الإنساني الذي ما يزال باقيا في بنية كثير من العلوم المعاصرة، وهو ما ظهرت تجلياته في غير ما تخصص، ولاسيما المجال القانوني الذي شهد صدور عدد من قوانين حماية ذوي الاحتياجات الخاصة وتعليمهم، وتقديم التسهيلات، وإعادة التأهيل، ومساعدتهم فيما يتعلق بالتقنية.

واستعمال مصطلح «ذوي الاحتياجات الخاصة» مرادفا بديلا للمعاقين أو الإعاقة نشأ بسبب مما يسمى في دراسات التطور اللغوي باللامساس أو الخطر، وهو المكافئ الترجمي لكلمة Taboo، وهو أن «بعض الألفاظ تصاب بما يشبه الحظر على استعمالها في المجتمع؛ لأن الناس يتشاءمون من ذكرها، معنى ذلك أن إرادة تحديد لفظ جديد دليل على معنى الإعاقة من غير أصواتها كان محكوما بإرادة تجنب الإيذاء النفسي الذي قد يتولد من هذا المصطلح الذي صار قديما بسبب الذي قدمناه في تفسير غيابه، وظهور مرادفه.

إن تأمُّل مصطلح الاحتياجات الخاصة، الذي هو مرادف لمصطلح الإعاقة المهجور، يظهر أنه ناتج منطقي لما يسمى في الجهاز الاصطلاحي لهذا العلم باسم العجز Disability.

مدونات تأصيلية لازمة

تمثل المدونات التأصيلية لحقل من الحقول المعرفية واحدة من اللوازم الأساسية لأية معالجة علمية تتوخى أن تتوصل إلى نتائج مفيدة في هذا المجال.

ولعل أهم أنواع للمدونات التأصيلية اللازمة لتنمية الوعي بثقافة التواصل مع ذوي الاحتياجات الخاصة في التراث العربي تتمثل في المحاور التالية:

أ- مدونة الآيات القرآنية الكريمة الخاصة بذوي الاحتياجات، وهذا المطلب لازم لقضية التفسير الموضوعي الذي يلزم النهوض به لاستجلاء نظر الكتاب الكريم في قضية الإعاقة والتعامل معها.

وتقترح الورقة ابتداء صناعة معجم موضوعي لحقول الإعاقة والاحتياجات الخاصة في الكتاب الكريم.

ب- مدونة الأحاديث النبوية الشريفة، وتتجلى الغاية من جمع هذه المدونة ببيان الهدي النبوي الكريم في التواصل مع ذوي الاحتياجات الخاصة، وتقترح الورقة صناعة مدونة حديثية تجمع كل ما روي عن النبي ﷺ في هذا الباب مرتبة موضوعيا، ومفهرسة هجائيًا، مع بيان درجة كل حديث ومظنة الإفادة منه.

ج- مدونة أدب الإعاقة، وتهدف هذه المدونة إلى دراسة الآداب التي أبدعها ذوو الاحتياجات الخاصة في التراث العربي من جانب، والآداب التي تعاطت مع حالاتهم، ذلك أن التلاقي بين الأدب وعلم النفس من جهة والتلاقي بين الأدب وعلم الاجتماع من جهة أخرى قادر على أن يكشف عن مدى ما تحقق من تواصل مجتمعي مع ذوي الاحتياجات الخاصة في المجتمعات العربية على امتداد التاريخ لفحص ما رسخ في الوعي الجمعي من إيجابيات تحتاج إلى مواصلة دعمها، ومن سلبيات تحتاج إلى نفس طويل للتخفيف من آثارها سعيا نحو التخلص منها.

وثمة محاولات- وإن تكن نادرة- توجهت نحو هذا المجال من مثل دراسة د.عبده بدوي عن الشعراء السود، وهو ما يحتاج إلى مواصلة السير في هذا الطريق لدراسة أدب العميان مثلا، وما وصل إلينا من أمثال وحكم تتعاطى مع هذه الطوائف.

المدخل اللساني

إن قراءة المنجز العربي في مجال اللسانيات، ولاسيما في مستوى الأداء الكلامي وفي مستوى التصنيف المعجمي، يستوقفه أمر العناية الظاهرة التي أولاها اللسانيون العرب القدامى لما يتعلق بذوي الاحتياجات الخاصة في غير ما مستوى لغوي، وربما كان كافيا في هذا المدخل التأسيسي التوقف أمام المحورين التاليين:

أ- لغة لا تأنف من الملاحظة والتسمية

عرف التصنيف المعجمي عند العرب فرعا مهما سمي في أدبياته باسم «الرسائل اللغوية الصغيرة» أو باسم «المعاجم أحادية الموضوع»، ومن فروعه المهمة ما سمي بمعاجم خلق الإنسان، وهي معجمات موضوعية اشتغلت بجمع الألفاظ اللغوية العربية التي تسمي وتصف أعضاء الجسم الإنساني مرتبة ترتيبا موضوعيا يرعى بنية الجسم الإنساني من رأسه إلى أخمصه، أو مرتبة هجائيا على المألوف من ترتيب أحرف الهجاء العربية.

ومن أهم ما وصل إلينا منها:

- خلق الإنسان، للأصمعي ٢١٣هـ.
- خلق الإنسان، لمحمد بن حبيب ٢٤٥هـ.
- خلق الإنسان، لثابت بن أبي ثابت ٢٧٠هـ.
- خلق الإنسان، للزجاج ٣١١هـ.
- خلق الإنسان، للخطيب الإسكافي ٤٢٠هـ.
- خلق الإنسان في اللغة، لأبي محمد الحسن بن أحمد بن عبدالرحمن.
- غاية الإحسان في خلق

أستاذ اللغة في جامعة الزقازيق

الإنسان، للسيوطي ٩١١هـ.

وفي هذه المعجمات وغيرها مما اعتنى بتسمية الإعاقات حصيلة لفظية كثيرة تعكس وعي المعجمية العربية وتقدمها في هذا الباب المهم ولاسيما في الجانب الذي يتعلق بمنهجية الترتيب الموضوعي حيث التفت عدد من أصحاب هذه المعاجم إلى قيمة رصد ألفاظ الإعاقات تحت عنوان تكرر كثيرا فيها باسم باب في الصفات، ومراجعة ما أورده السيوطي مثلا في كتابه في باب صفات العين توقفنا على ما رصده اللسان العربي بأنواع الإعاقات وأنماطها المؤسسة على ملاحظات وتجربة.

ب- آفاق لغوية متعاطفة

ولم تقف حدود العناية اللسانية عند العرب عند حدود العمل المعجمي ولكنها تجاوزتها إلى حقول ومستويات أخرى أظهرت قدرا من التعاطف في التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة استهدافا لتحقيق تواصل جيد مع بقية أفراد المجتمع. ولعل أظهر تجليات هذا التعاطف ظاهر في دراسات الأداء اللغوي فيما يحكى لنا في أدبيات البيان من جهود جادة مخلصة تعالج عيوب النطق ومشكلات الكلام من لدن الجاحظ في البيان والتبيين، وهو الأمر الذي رصدت الكتب القديمة آثارا اجتماعية ولغوية من جرائه على ما نقله «يوهان فك» في كتابه «العربية» ص١٢٢.

على أن ثمة نصا مهما جدًّا يعكس وعيا مبكرا لدى العرب بضرورة التواصل الإيجابي مع بعض أنواع الإعاقات، وهو نص رسالة الكندي الفيلسوف في اللثغة، وقد عرض فيه لتشخيص الإعاقة النطقية مقررًا (ص ٥٢٣): «إن تعسر اللسان عن الحال الجاري المجرى الطبيعي يكون من عرضين لازمين، إما من تشنج، وإما لاسترخاء، فأما التشنج فهو أن يأتي الإنسان بألفاظ غير تامة، وأما الاسترخاء فهو أن يأتي الإنسان بألفاظ زائدة خارجة عن الجاري المجرى الطبيعي على غير نظام» .

وهذا الوعي المبكر على المستوى العلمي في مجال إعاقات الكلام له نظائر أخرى متنوعة في المجالات الأخرى الأمر الذي يمثل سبقا مهما في مجال تأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة، مما يحتاج إلى استثمار معاصر لم يرق إلى الدرجة المقنعة.

لا تخلو أحكام الشريعة من رعاية لذوي الاحتياجات الخاصة في ابواب الفقه المختلفة

المدخل الحضاري

إن ما حققه العرب من مستوى حضاري متقدم في تاريخ ممتد طويل يحظى بإجماع مؤرخي الحضارات على اختلاف انتماءاتهم يدعونا إلى فحص هذا الأثر في المنجز الذي خلفوه في مجال الرعاية لذوي الاحتياجات الخاصة.

وربما كان صالحا من وجوه كثيرة رصد هذا الملمح الحضاري من عناية الحضارة العربية التراثية بذوي الاحتياجات الخاصة أن نقف عند محورين أساسيين يبرزان متألقين في هذا الميدان وهما:

أ- التأريخ عندما يرعى الإنسان، في هذا المحور يلمس دارسو الحضارة العربية ملمحًا مهما جدًّا يمكن إيجازه في عبارة أرجو ألا تحمل على الشعرية والمجازية التي تبعدها عن مربع الحق إلى مربعات أخرى من المبالغة، وهي: «عَرَجَة تطأ الجنة».

وربما كان تفسير هذه العبارة ظاهرا في الحضارة العربية التي لم تر الإبداع أو التقدم أو الارتقاء حكرا على البشر العاديين غير المعاقين، لقد استطاع الوعي الحضاري العربي أن يرى نفسه مدينا لذوي الاحتياجات الخاصة في بناء صرح هذه الحضارة.

وليس أدل على ذلك من حفاوة عدد من المصنفات المعنية بالشأن الحضاري بكثير من الرموز التي أسهمت في تشييد الصرح الحضاري العربي، حيث رصدت أسماء لكثير من الأشراف، لم يؤخر رتبتهم في الشرف ملابستهم لبعض الإعاقات المختلفة، أي أن الإعاقة لم تكن مانعا في التصور الحضاري العربي التراثي من حيازة الشرف والعلو الطبقي.

ب- أدبيات راعية، ولم تقف حدود الرعاية لذوي الاحتياجات الخاصة وتقدير مراتب الشرف التي حازها نفر كثير منهم عند المصنفات الحضارية التي مر ذكر أمثلة لها، ولكن ظهرت مصنفات مستقلة للعناية بذوي الاحتياجات الخاصة.

وهو الأمر الذي يؤكد هذا الوعي العربي بإنسانية ذوي الاحتياجات الخاصة من جانب، ويعكس الآفاق الرحبة التي تنتظر استثمار هذا التراث العربي لدعم الجهاد المعاصر في هذا الميدان.

وفيما يلي نماذج لعدد من الأدبيات العربية التراثية المؤكدة لهذا المنحى:

١- البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ، وهو ينطلق من زاوية تقدر أن التفوق الإنساني ليس ممنوعا منه ذوو الاحتياجات الخاصة، وهو الأمر الذي يظهر في افتتاحه كتابه بقوله ص ٧ «والعرج الأشراف كثير، والعمي الأشراف أكثر» ثم يقول: «إن جماعة فيهم كانوا يبلغون مع العرج ما لا يبلغه عامة الأصحاء، ومع العمى يدركون ما لا يدركه أكثر البصراء».

٢- الهميان في نكت العميان، للصفدي ٧٦٤هـ، والذي يفحص هذا الكتاب يلمس تعاطفا نبيلا من الصفدي نحو أصحاب العمى حيث يرجح نبوة الأعمى وإمامته وتوليه القضاء، وهو الذي استقر لديه بعد استجماع الأدلة وتأويلها، يقول (ص٤٤): «إن عمى شعيب وغيره من الأنبياء صحيح، قيل: ومقام النبوة أشرف من مقام القضاء» ومن ثم لا يمنع منه.

إن أقل وصف لفعل التراث العربي في ميادينه المختلفة أنه كان متعاطفا ومتوازنا ومقدرا للمنجز الإنساني وللقدرة الإنسانية بغض النظر عما يمكن أن يلابس بعض الأفراد من إعاقات، فباسم هذا التراث وباسم هذه المرجعية تقدم ذوو الاحتياجات الخاصة فأبدعوا، وقادوا وألفوا، وتألقوا في المجالات المختلفة، وهو الأمر الذي يمثل دعما منقطع النظير أو ينبغي أن يمثله لحركة دعم ذوي الاحتياجات الخاصة المعاصرة والتمكين لها.